﴿١٦٤﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ

**سبب النزول :**

قال عطاء : لمّا نزلت : وإلهكم إله واحد قالت كفار قريش : كيف يسع النّاس إله واحد ! فنزلت : إن فى خلق السماوات والأرض . رواه سفيان عن أبيه عن أبى الضحى قال : لمّا نزلت : وإلهكم إله واحد . قالوا هل من دليل على ذلك ؟ فأنزل الله تعالى : إن فى خلق السماوات والأرض. فكأنهم طلبوا آية فبين لهم دليل التوحيد وأن هذا العالم والبناء العجيب لا بد له من بانٍ وصانع(١) .

**اختلاف الليل والنهار** : بالذهاب والمجيء والزيادة والنقصان(٢) قيل : اختلافهما بإقبال أحدهما وإدبار الآخر ... وقيل : اختلافهما فى الأوصاف من النور والظلمة والطّول والقصر(٣) .

**الفلك** : السفن وإفراده وجمعه بلفظ واحد ويذكّر ويؤنّث ... والفلك المفرد مذكّر . قال الله تعالى « فى الفلك المشحون » ، فجاء به مذكراً . وقال « والفلك التي تجرى فى البحر » فأنث . ويحتمل واحداً وجمعا . وقال : « حتىّ إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم » فجمع ، فكأنّه يذهب بها إذا كانت واحدةً إلى الْمركب فيذكّر وإلى السفينة فيؤنث(٤) وأصله من الدوران . ومنه فَلَك السّماء الذى تدور فيه النجوم وفَلْكة المغزل وفَلْكَةُ الجارية استدرار نهدها(٥)

---

(١) تفسير القرطبي ص ٥٧٢ وانظر البحر المحيط ١ / ٤٦٤ وتفسير ابن كثير ١ / ٢٠٢ .
(٢) الجلالين . (٣) تفسير القرطبي ص ٥٧٢ .
(٤) تفسير القرطبي ص ٥٧٤ . (٥) البحر المحيط ١/٤٥٥ وانظر تفسير القرطبي ص ٥٧٤ .

وأوّل من عمل الفلك نوح على نبيّنا وعليه أفضل الصلاة والسلام . وقال له جبريل عليه السلام ضعها على جؤجؤ[1] الطائر . فالسفينة طائر مقلوب . والماء فى أسفلها نظير الهواء فى أعلاها . قاله أبو بكر بن العربي[2] وبهذا يتبين أن السفينة إنما سميت فلكاً لأنها تدور بالماء أسهل دور[3] .

**وبثّ فيها**: أى فرّق ونشر . ومنه « كالفراش المبثوث »[4] .

**دابـــة** : تجمع الحيوان كله[5] والهاء فى الدابة للتأنيث . إمّا على معنى نفس دابّة . وإما للمبالغة ، لكثرة وقوع هذا الفعل . وتطلق على الذّكر والأنثى[6] .

**وتصريف الرياح**: تصريفها إرسالها عقيما وملقحة وصِرّاً ونَصْرا وهلاكاً وحارّة وباردة وليّنة وعاصفة . وقيل : تصريفها إرسالها جنوباً وشمالاً ودبورا وصباً ونكباء . وهى التي تأتي بين مهبي ريحين[7] ويقول الزمخشرى[8] : « وتصريف الرّياح فى مهابّها قَبولا ودَبورا وجنوباً وشمالاً وفى أحوالها حارةً وباردةً وعاصفة ولينة وعقما ولواقح . وقيل : تارةً بالرحمة وتارة بالعذاب » . والتّصرف مصدر صرف . ومعناه راجع للصرف وهو الردّ ، صرفت زيدا عن كذا رددته[9] .

**السحاب** : اسم جنس المفرد سحابة[10] سمّى بذلك لانسحابه فى الهواء[11] كما يقال له حبيّ لأنه يحبو قاله أبو على[12] .

**المسخّـــر** : المذلّل . وتسخيره بعثه من مكان إلى آخر[13] والتّسخير : التّذليل وجعل الشّىء داخلا تحت الطّوع . قال الرّاغب : التّسخير القهر على الفعل . وهو أبلغ من الإكراه[14] .

---

(١) الجؤجؤ : عظام صدر الطائر
(٢) البحر المحيط ١/٤٦٥ وتفسير القرطبي ص ٥٧٤ .
(٣) تفسير القرطبي ص ٥٧٤
(٤) تفسير القرطبي ص ٥٧٦ .
(٥) تفسير القرطبي ص ٥٧٦ والبحر المحيط ١/٤٥٥
(٦) البحر المحيط ١ / ٤٥٥ .
(٧) تفسير القرطبي ص ٥٧٧ .
(٨) الكشاف ١ / ٢٤٨ .
(٩) البحر المحيط ١ / ٤٥٥ .
(١٠) البحر المحيط ١ / ٤٥٥ .
(١١) تفسير القرطبي ص ٥٨٠ .
(١٢) البحر المحيط ١ / ٤٥٥ .
(١٣) تفسير القرطبي ص ٥٨٠ .
(١٤) البحر المحيط ١ / ٤٥٦ .

إنّ مِنْ أهمّ ما نودّ الوقوف عنده الترتيب المعجز لهذه الآيات الدّالة على وحدانيته وقدرته المطلقة جلّ وعلا . إنَّ الآية الكريمة تبدأ بأكبر مخلوقات الله تعالى ، وتقدم العلوى على السفلى ، ولأن العلوى أكبر من السفلى وأعظم وقد قال تعالى[1] :« لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لايعلمون » ومن الأدلة على عظم السماوات بالقياس إلى الأرض مجيء السماوات فى صيغة الجمع ، ومجيء الأرض فى صيغة المفرد . « إن فى خلق السماوات والأرض ». « وجمع السماوات لأنها أجناس مختلفة ، كل سماء من جنسٍ غير جنس الأخرى . ووحَّد الأرض لأنَّها كلّها تراب . والله تعالى أعلم »[2].

وإنَّ النّاظر إلى السّماوات والأرض ، يروعه فى كل لحظة من لحظات حياته آية الليل الممحوة وآية النهار المبصرة . ولكلٍّ منهما علاقة وثيقة بكلٍّ من السماء والأرض من حيث التأثّر والتأثير . فبسبب غياب الشمس المعلّقة بيد القدرة الإلٰهية فى الفضاء أو فى السماء تنير السماء بالنجوم وبالقمر وتظلم الأرض . وبسبب بزوغ الشمس لا يبدو كوكب واحد فى السماء التي تنير هي – أعني السماء – والأرض فى كل الجوانب التي تدركها الأبصار . وإنَّ لصوق كلٍّ من الليل والنّهار بالسماء والأرض وثيق بأكثر من أي شيء آخر تبصره العينان ، لأنهما لايتركان بقعة واحدة من السماء والأرض الا ويصلان بيد القدرة الإلٰهيَّة إليها .

وإن التناوب البديع بين الليل والنهار وتعاقبهما البديع فى شمول الكون ، من أكبر آيات الله تعالى الدالة على قدرته . وقد قال عز من قائل[3] : « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون . والشمس تجرى لمستقرٍّ لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمرَ قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكلٌّ في فَلَك يسبحون » وقال تعالى[4] : « تبارك الذى جعل فى السماء

---

(١) سورة غافر ٥٧ .
(٢) تفسير القرطبي ص ٥٧٢ .
(٣) سورة يس ٣٧ – ٤٠ .
(٤) سورة الفرقان ٦١ ، ٦٢ .

بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً . وهو الذى جعل الليل والنهار خِلْفَةً لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً » وقال تعالى[1] : « قل أرأيتم إنْ جعل الله عليكم سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء . أفلا تسمعون . قل أرأيتم إنْ جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه. أفلا تبصرون. ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلّكم تشكرون » .

إن الشمس بنص القرآن الكريم ، لاينبغي لها أن تدرك القمر . وإنّ الليل لا ينبغي له أن يسبق النهار . وإن كلا من هذه العناصر الأربعة ، وهي عماد آيتى الليل والنهار ، فى فلك خاص به يسبح فيه . وها هو ذا سياق الآية الكريمة يتحول من هذه الآيات الأربع التي يسبح كل منها فى فلك ، إلى الفُلْك ، بمعنى السفن التي تسبح فى الماء . ومعروف أن الماء ينزل من السماء إلى الأرض ، ومعروف أن نزول الماء ثمرة لتفاعلات سماوية وأرضية . وإنَّ أوضح الجوانب فى هذا الشأن دورة الماء ، التي تبدأ من الماء مروراً بالبخار بفعل الحرارة الناجمة عن الشمس فى المقام الأول وتنتهى إلى الماء الناجم عن تكثييف البخار بفعل البرودة التي تتم فى الأجواء ليلاً أو نهاراً ، فى حالة غياب الشمس أو حضورها ، أفولها أو بزوغها . وقد جاء فى سورة النور[2] قوله تعالى : « ألم تر أن الله يُزْجى سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزّل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمّن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار . يقلّب الله الليل والنهار . إنّ فى ذلك لعبرةً لأولى الأبصار » .

ومعروف أن الفلك تجرى فى البحر ، والمراد به الماء الكثير ، عذبا فراتا أو مِلْحاً أجاجا ، وإنْ كان ارتباطه بالماء الملح أكثر[3] وقد جاء فى سورة الفرقان[4] قوله تعالى : « وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحِجْراً محجوراً » .

---

(١) سورة القصص ٧١ – ٧٣ .
(٢) الآية : ٤٣ ، ٤٤ .
(٣) انظر القاموس المحيط « بحر » .
(٤) الآية : ٥٣ .

وبما أنَّ الماء الذى جعل الله تعالى منه كل شيء حي نوعان ، وبما أن الفلك يغلب عليها أن تجرى فى البحر الملح الأجاج ، بينما تحيا المخلوقات فى اليابسة على الماء العذب الفرات ، فقد تم تحول السياق إلى نعمة الله تعالى على عباده بهذا النوع الثانى من الماء . قال تعالى : « وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة » إنّ الماء متاع للناس وللأنعام . جاء فى سورة الفرقان(١) قوله تعالى : « وهو الذى أرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته وأنزلنا من السماء ماءاً طهوراً . لنحيى به بلدة ميتا ونُسْقِيَه مِمَّا خلقنا أنعاماً وأناسى كثيراً » وجاء فى سورة النازعات(٢) قوله تعالى : « والأرض بعد ذلك دحاها ، أخرج منها ماءها ومرعاها . والجبال أرساها . متاعاً لكم ولأنعامكم ». وجاء فى سورة الأنبياء(٣) قوله تعالى : « أو لم ير الذين كفروا أن السماواتِ والأرضَ كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون ».

ولو أنَّا نظرنا إلى عامل من أهم العوامل فى تسيير السفن ، وبخاصة فى القديم ، وفى انزال المطر ، لتبينا أنه الرياح . إنّ السّفن فى كل زمان ومكان لا تستغنى عن الرياح لحظة من اللحظات . وإن الله سبحانه وتعالى يرسل الرياح لواقح . وها نحن أولاء نصادف السياق وقد تحول إلى هذه النعمة « وتصريف الرياح » . وقد جاء فى سورة الحجر(٤) قوله تعالى : « وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين » .

وهكذا يتبين الترتيب المعجز لهذه الآيات الدالة على وحدانيته وقدرته المطلقة جل وعلا . إنَّ كفار مكة طلبوا آية واحدة ، وهاهم أولاء أمام حشد من الآيات ، إضافةً إلى آية الإسلام العظمى ، القرآن الكريم .

وإن الآية الكريمة لتحصر الإفادة من تدبر هذه الآيات فى الذين ينتفعون بنعمة العقل ويستعملون هذه النعمة استعمالاً صحيحاً .

---

(١) الآيـة : ٤٨ ، ٤٩ .
(٢) الآيات : ٣٠ – ٣٣ .
(٣) الآيـة : ٣٠ .
(٤) الآيـة : ٢٢ .

وتتحدث الآية الكريمة عن السماوات والأرض من زاوية خلقهما على غير مثال سابق وإيجادهما من العدم . وتكاد السماوات والأرض تكون أكبر آيات الله تعالى الدالة على الوحدانية وكمال القدرة . كما تتحدث عن الليل والنهار من زاوية اختلافهما بمعنى تعاقبهما ، ويرتبط بذلك الاختلاف فى طبيعة كل من الآيتين . فقد شاءت ارادة الله تعالى أن تكون آية الليل ممحوة مظلمة وآية النهار مبصرة منيرة . كما تتحدث عن آية حمل الفلك فوق الماء من أعجب الزوايا . إنّ السفينة سواء كانت صغيرة أو كبيرة ، تستطيع بإرادة الله تعالى أن تجرى فى البحر بما ينفع الناس . ويدخل فى الجري المشى البطىء ، ويدخل فى الجرى وقوف السفينة فوق الماء سواء كانت فارغة أو مثقلة بالأحمال فى الوقت الذى لاتستطيع فيه الحصاة الصغيرة حينما يلقى بها فى الماء ألا أن تغوص . وإنّ هذه الآية الكبيرة الدالة على وحدانية الله تعالى وقدرته المطلقة جل وعلا يستطيع كلّ إنسان أن يمارسها بأن يمخر عباب الماء فوق كل سفينة . ولهذا جاء فى الآية الكريمة لفظ النّاس « بما ينفع الناس » كي يشكر هؤلاء الناس ربهم المنعم عليهم بعبادته جل وعلا وحده لاشريك له . وقد جاء فى سورة يس[1] قول تعالى : « وآية لهم أنّا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون . وخلقنا لهم من مثله ما يركبون . وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون . إلاّ رحمة منا ومتاعا إلى حين » .

وتتحدث الآية الكريمة عن آية نزول الماء من السماء من أهم جوانبها ، ألا وهو احياؤه بإرادة الله تعالى الأرض بعد موتها ، خاصة وقد ابتدأت الآيات الدالة على وحدانية الله تعالى بآية السماء والأرض . وفى حياة هذه الأرض ، أو فى عودة الحياة إليها حياةٌ لكل ما بث الله تعالى فيها من مخلوقات تدب ، ابتداء بالإنسان الّذى كرمه الله تعالى وحمله فى البر والبحر ورزقه من الطيبات وفضله على كثير من خلق تفضيلاً . ولهذا عطف فى الآية الكريمة بث كل دابة فى الأرض على انزال الله تعالى الماء من السماء لأن الماء عماد الحياة فقد جعل الله تعالى منه كل شىء حي . جاء فى سورة يس[2] قوله تعالى : « وآية لهم الأرض الميته أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون . وجعلنا فيها

---

(١) سورة يس ٤١ – ٤٤ .

(٢) الآيات ٣٣ – ٣٦ .

جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون . ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون . سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون » .

وتشير الآية الكريمة إلى آية تصريف الله تعالى الرياح ، وللرياح علاقة بكل من الماء والسحاب لأن الرياح تُلْقح السحاب فيمطر . وبما أن السياق تعرّض من قبل لآية الماء النازل من السماء ، فقد تعرض بعد ذلك لآية السحاب .

والملاحظ أنّ الحديث عن تصريف الرياح ، يجيء فيه لفظ الرياح فى صيغة الجمع ، لأن نزول الماء من السحاب ، وهو من مظاهر رحمة الله تعالى بعباده ، إنما يكون وليد مجموعة من الرياح وليس وليد ريح واحدة . ولهذا ارتبط بصيغة الجمع « رياح » فى القرآن الكريم بعض مظاهر فضل الله تعالى على عباده ورحمته بهم . بينما ارتبط بصيغة المفرد « ريح » بعض مظاهر عذاب الله تعالى لعباده . إلا إذا كانت طبيعة الرحمة إنما تتم بواسطة الريح الواحدة ، كتسيير السفن فى البحر ، فإن صيغة الإفراد هي التي تجيء ولكنها مقيدة بصفة تصرفها عن العذاب إلى الرحمة ، وذلك فى قوله تعالى فى سورة يونس[1] : « هو الذى يسيّركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين » .

وتتحدث الآية الكريمة عن السحاب من زواية تسخير الله تعالى له بين السماء والأرض . إنَّ السحاب ليس قائما على الأرض وليس معلقا بالسماء ولكنه قائم بِيَدِ القدرة الإلٰهية بينهما . ثم هو مسخَّر ومذلل توجهه القدرة الإلٰهية حيث شاءت من أجل هذه المخلوقات على الأرض . إنَّ على كل إنسان أن يتدبر هذا السحاب المعلّق فوق رأسه والذى لا يأتى ماء السماء إلا منه ، والذى توجهه العناية الإلٰهية حيث شاءت . وإنَّ على كل إنسان أن يتدبر هذا السحاب الثقال بالماء . إن الماء من أثقل الموجودات . ومع ذلك فإن هذا السحاب الذى يضرب به المثل فى خفته وسرعته يحمل من أثقال الماء ما لا يعلم

---

(١) الآيـة : ٢٢ .

حقيقته إلا الله تعالى . فسبحان الله تعالى القادر على كل شيء ، الذى لا يعجزه شيء فى الأرض ولا فى السماء .

لقد ذيّلت الآية الكريمة بالتنبيه إلى كون هذه الآيات إنما يتدبرها ويفهم معانيها وما ينبغى أن يترتب عليها من تحقيق الهدف الذى من أجله خلق الله تعالى الجن والانس ، أولئك القوم الذين يعقلون . أولئك القوم الذين تقوم بهم الأمور واستعملوا نعمة العقل استعمالاً صحيحاً وفهموا ما فتح الله تعالى عليهم به من تأملهم لكل آية من الآيات التي ذكرتها الآية الكريمة ، لأنهم بفضل الله تعالى ينظرون بأعينهم المبصرة ، وبصائرهم النيرة ، ويسمعون بآذانهم الواعية العاقلة .

روى عن النبي ﷺ أنه قال : ويل لمن قرأ هذه الآية فمج بها أى لم يتفكر فيها ولم يعتبرها »[1] .

« وقال بعض الحكماء : إنَّ كلَّ شيء فى العالم الكبير له نظير فى العالم الصغير الذى هو بدن الإنسان . ولذلك قال تعالى : لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم . وقال : وفى أنفسكم أفلا تبصرون . فحواس الإنسان أشرف من الكواكب المضيئة . والسمع والبصر منها بمنزلة الشمس والقمر فى إدراك المدركات بها . وأعضاؤه تصير عند البلى ترابا من جنس الأرض . وفيه من جنس الماء العَرَق وسائر رطوبات البدن . ومن جنس الهواء فيه الروح والنَّفَس . ومن جنس النار فيه المرّة الصفراء . وعروقه بمنزلة الأنهار فى الأرض . وكبده بمنزلة العيون التي تستمد منها الأنهار ، لأن العروق تستمد من الكبد . ومثانته بمنزلة البحر . لانصباب ما في أوعية البدن إليهما كما تنصب الأنهار إلى البحر . وعظامه بمنزلة الجبال التي هي أوتاد الأرض . وأعضاؤه كالأشجار . كما أن لكل شجر ورقا أو ثمرا فكذلك لكل عضو فعل أو أثر . والشعر على البدن بمنزلة النبات والحشيش على الأرض . ثم إنَّ الإنسان يحكي بلسانه كل صوت حيوان ويحاكي بأعضائه صنيع كل حيوان فهو العالم الصغير مع العالم الكبير ، مخلوق محدث لصانع واحد لا إله إلا هو »[2] .

---

(١) تفسير القرطبي ص ٨١ والكشاف ١/٢٤٨ .  (٢) تفسير القرطبي ص ٥٨٣ .

## كافرون ومؤمنون : الآيات ١٦٥ - ١٧٧

﴿١٦٥﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ

بينت الآية الكريمة السابقة عدداً من آيات الله تعالى الدالة على وحدانيته وقدرته المطلقة جل وعلا ، لكل من ألقى السمع وهو شهيد وانتفع من نعمة العقل التى امتن الله تعالى بها عليه . وعلى الرغم من كل هذه الأدلة والبراهين والتنبيهات فإن ثمة فريقاً من الناس أعمى الله تعالى بصائرهم فأشركوا مع الله تعالى غيره . وها هي ذى الآية الكريمة التي تحوّلنا إليها تقرر حال هذا الفريق ومصيره .

إنَّ من الناس ، اليهود والنصارى فى المقام الأول ، من يتخذ من دون الله أنداداً ، أى أمثالاً من الرؤساء المتَّبعين الذين يحبونهم كحب الله فيطيعونهم فى معاصي الله حينما يحللون لهم ما حرم الله تعالى ، ويحرمون عليهم ما أحل الله تعالى . وإلى هذا الفريق من الناس أشار قوله تعالى فى سورة براءة[1] : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله » .

وإذا كان هذا الفريق الضال من الناس يسوى بين حبه لله تعالى الخالق البارىء المصور ، وبين حبه للأنداد التي يتخذها من دون الله تعالى ، فإن الآية الكريمة تقرر أن الذين آمنوا أشد حباً لله تعالى الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . إنَّ هؤلاء المؤمنين لا يعبدون إلا الله تعالى ولا يعتمدون ولا يتوكلون إلا عليه ولا يلجأون إلا إليه بخلاف أولئك الذين يتخذون من دون الله أنداداً .. إنَّهم يلجأون إليهم فى وقت الرّخاء ، أما فى وقت الشدة فلا يلجأون إلاّ إليه جل وعلا وحده لا شريك له . وقد جاء فى سورة الأنعام[2] قوله تعالى : « قل أرأيتكم أن أتاكم عذاب

---

(١) الآيـة : ٣١ .

(٢) الآيـة : ٤٠ ، ٤١ .

الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين . بل إيّاه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إنْ شاء وتنسون ما تشركون » .

والآية الكريمة تقرّر على الفور العذاب الشديد الذى سيكون من نصيبهم والموقف العصيب الذى سيقفونه « يوم لا ينفع مال ولا بنون . إلا من أتى الله بقلب سليم » قال تعالى « ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوّة لله جميعاً وأن الله شديد العذاب » .

والمعنى ، والله تعالى أعلم ، ولو يعلم فى هذه الحياة الدنيا أولئك الذين ظلموا باشراكهم مع الله تعالى غيره ، إذ يرون يوم القيامة العذاب الشديد ، أن القوة جميعها لله تعالى وحده لا شريك له ، وأن الله شديد العذاب ، لو يعلم أولئك فى الحياة الدنيا ما سيعلمونه يقيناً يوم القيامة لتبينوا ضرر اتخاذهم الآلهة[1] وبهذا يكون جواب لو محذوفاً : « قال الزهرى وقتادة : الإضمار أشد للوعيد »[2] ويقول أبو حيان [3] : « وحذف جواب لو لفهم المعنى كثير فى القرآن وفى لسان العرب . قال تعالى : ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت . ولو ترى إذ وقفوا على النار . ولو أن قرآنا سيرت به الجبال . وقال امرؤ القيس :

وجدّك لو شيء أتانا رسوله سواك ولكن لم نجد لك مدفعاً »

ويقول الزمخشرى[4] : « أى ولو يعلم هؤلاء الذين ارتكبوا الظلم العظيم بشركهم أن القدرة كلّها لله على كل شيء من العقاب والثواب دون أندادهم ويعلمون شدة عقابه للظالمين إذا عاينوا العذاب يوم القيامة لكان منهم ما لا يدخل تحت الوصف من الندم والحسرة ووقوع العلم بظلمهم وضلالهم » .

---

(١) انظر تفسير القرطبي ص ٥٨٥ .
(٢) تفسير القرطبي ص ٥٨٥ .
(٣) البحر المحيط ١ / ٤٧٢ .
(٤) الكشاف ١ / ٢٤٩ .

وثمة قراءة أخرى يقول على سبيل المثال القرطبى[1] بشأنها : « ومن قرأ بالتاء فالتقدير : ولو ترى يا محمد الذين ظلموا فى حال رؤيتهم العذاب وفزعهم واستعظامهم لأقروا أن القوة لله . فالجواب مضمر على هذا النحو من المعنى وهو العامل فى أنّ . وتقدير آخر : ولو ترى يا محمد الذين ظلموا فى حال رؤيتهم العذاب وفزعهم منه لعلمت أن القوّة لله جميعاً » .

(١) تفسير القرطبي ص ٥٨٥ .

﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴾

**إذ تبرأ :** بدل من إذ يرون العذاب(١) .

**والذين اتُّبعوا :** هم رؤساؤهم وقادتهم الذين اتبعوهم فى أقوالهم وأفعالهم قاله ابن عباس وعطاء وأبو العالية وقتادة والربيع ومقاتل والزّجّاج(٢) أو عام فى كل متبوع . وهوالذى يدل عليه ظاهر اللفظ(٣) وقراءة الجمهور اتبعوا الأول مبنيا للمفعول والثانى مبنياً للفاعل(٤) .

**وتقطعت بهم الأسباب :** أي الوُصُلات(٥) التي كانوا يتواصلون بها فى الدنيا من رحم وغيره . الواحد سبب ووُصله . وأصله الحبل يشدّ بالشّىء فيجذبه ثم جعل كل ما جر شيئاً سبباً(٦) .

أشارت الآية الكريمة السابقة إلى علم الذين ظلموا إذ يرون العذاب يوم القيامة أن القوة لله جميعاً . وفى هذه الآية الكريمة تعميق لذلك المعنى . ان المتبوعين يتبرأون من التابعين وقد رأى كل منهم العذاب الشديد ، كما أن كل العلائق بينهم فى الدنيا من رحم ومناخ تتقطع يوم القيامة . وإنَّ التابعين ليبادلون المتبوعين شعور البغض والنفور . وهو ما تنص عليه الآية الكريمة التالية . ويقول أبو حيان(٧) فى معرض تذوقه لجمال نظم الآية الكريمة : « وفى هذه الجمل من أنواع البديع نوع يسمى الترصيع . وهو أن يكون الكلام مسجوعاً . كقوله تعالى : ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه . وهو فى القرآن

---

(١) الكشاف ١ / ٢٤٩ والبحر المحيط ١ / ٤٧٣ والجلالين .
(٢) البحر المحيط ١ / ٤٧٣ وانظر تفسير القرطبي ص ٥٨٥ .
(٣) البحر المحيط ١ / ٤٧٣ .
(٤) البحر المحيط ١ / ٤٧٣ .
(٥) جمع الوصلة بضم الواو وسكون الصاد هي ما يصل بين الشيئين .
(٦) تفسير القرطبي ص ٥٨٦ وانظر تفسير ابن كثير ١ / ٢٠٣ .
(٧) البحر المحيط ١ / ٤٧٣ .

كثير . وهو فى هذه الآية فى موضعين : أحدهما إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا . وهو محسّن الحذف لضمير الموصول فى قوله : اتّبعوا . إذ لوجاء اتبعوهم لفات هذا النوع من البديع . والموضع الثانى ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب . ومثال ذلك قول أبي الطيب :

فى تاجه قمر فى ثوبه بشر[1] فى درعه أسد تَدْمَى أظافره »

(١) رواية الديوان ٢ / ١١٩ : « قد حِزْن فى بشر فى تاجه قمر » .

﴿١٦٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ

تبين الآية الكريمة رد الفعل لدى الأتباع بعد أن تبرأ منهم ومن شركهم الذين اتَّبعوا وقد رأوا جميعاً العذاب وتقطعت بهم الأسباب .

فهؤلاء الأتباع يتمنون لو كانت لهم رجعة وعودة إلى الحال التي كانوا فيها فى الدنيا كي يتبرأوا منهم وذلك بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له .

وكما أراهم رب العزة العذاب يوم القيامة يريهم أعمالهم السيئةفى الدّنيا حسرات عليهم يوم القيامة وندامات . فقد كان فى إمكانهم لو أنهم انتفعوا بعقولهم أن يهجروا الأعمال السيئة وأن يقوموا بالأعمال الصالحة التى يريدون بها وجه الله تعالى . أمّا الأعمال التي كانوا يعتبرونها حسنة ، من إكرام ضيف وإغاثة ملهوف وصلة رحم وما إلى ذلك ، فقد جعلها الله تعالى هباءً منثورا . فالحسرات إذن ملازمة للقوم دائماً . ثم هم وراء ذلك ليسوا بخارجين من النار « وجاء الخبر مصحوبا بالباء الدالة على التوكيد »[1] .

وإنّ القرآن الكريم ليبين فى العديد من المواضع تبرؤ كل من المضلين والضالين من الفريق الآخر . فعلى سبيل المثال جاء فى سورة سبأ[2] قوله تعالى : « وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين . قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين . وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون » . وجاء فى سورة الأعراف[3] قوله تعالى :

---

(١) البحر المحيط ١ / ٤٧٥ . (٢) الآيات : ٣١ - ٣٣ . (٣) الآيات : ٣٧ - ٣٩ .

« فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته . أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب . حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم قالوا أينما كنتم تدعون من دون الله قالوا ضلوا عنا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين . قال ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس فى النار . كلّما دخلت أمة لعنت أختها . حتى إذا إداركوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضِعْفاً من النّار . قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون . وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون » .

وقد بيَّنت سورة الأنعام أنهم لو فرض أن ردوا إلى الحياة الدنيا لعادوا لما نهوا عنه من الإشراك مع الله تعالى غيره وأنهم لكاذبون . قال تعالى[1] : « ولو ترى إذ وقفوا على النّار فقالوا يا ليتنا نُرَدُّ ولا نكذّبَ بآيات ربنا ونكون من المؤمنين . بل بدالهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نُهوا عنه وإنَّهُمْ لكاذبون » .

---

(١) سورة الأنعام : ٢٧ ، ٢٨ .

﴿١٦٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ

بعد أن بيَّنت الآيات الكريمات الأدلة على وحدانية الله تعالى وقدرته وإشراك بعض العباد مع الله تعالى سواه رغم هذه الأدلة والعذاب الذى ينتظرهم يوم القيامة ، بينت هذه الآية الكريمة مظهراً من مظاهر فضل الله تعالى على عباده ، حيث إنَّ كفر بعضهم لا يحول بينهم وبين إنعام الله تعالى عليهم . فلعلّ أولئك الكافرين يرعون تلك النعمة ويقومون بما يجب عليهم تجاه شكرها . وهذا ثانى نداء وقع فى سورة البقرة بقوله : « يا أيها الناس » . ولفظه عام . قال الحسن : نزلت فى كل من حرم على نفسه شيئاً لم يحرّمه الله عليه[1] فالمطلوب من كل عباد الله تعالى أن يأكلوا مما فى الأرض حلالاً طيباً . والشيء الحلال هو السائغ الانتفاع به[2] والطيب الطاهر من كل شبهة[3] وقال الشافعي : الطيب المستلذ[4] وبعد أن أمر العباد بأكل كل طيب مباح ، نهوا عن اتباع خطوات الشيطان لأنه عدو مبين . وما أكثر المواضع فى القرآن الكريم التي بينت بصريح اللفظ عداوة الشيطان للإنسان كي يأخذ الإنسان منه حذره .

---

(١) البحر المحيط ١ / ٤٧٨ .
(٢) البحر المحيط ١ / ٤٧٧ .
(٣) الكشاف ١ / ٢٤٩ .
(٤) تفسير القرطبي ص ٥٨٧ .

﴿١٦٩﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ

سمي السّوء سوءاً لأنه يسوء صاحبه بسوء عواقبه . وهو مصدر ساء يسوء سوءاً ومساوة[١] قيل عن ابن عباس وغيره : السّوء ما لا حد فيه[٢] والفحشاء مصدر كالبأساء وهو فعلاء من الفحش وهو قبح المنظر . ومنه قول امرىء القيس :

وجيد كجيد الريم ليس بفاحش إذا هي نصته ولا بمعطل

ثم توسّع فيه حتى صار يستعمل فيما يستقبح من المعانى[٣] وعليه فالفحشاء : القبيح شرعاً[٤] قيل عن ابن عباس وغيره : الفحشاء ما فيه حد[٥] .

تبين الآية الكريمة ثمرة اتباع خطوات الشيطان والعياذ بالله . إنّه يأمر الذين يتولّونه بكل إثم يسوء صاحبه بسوء عواقبه وبكل قبيح شرعاً وعقلاً ، كما يأمرهم بأن يقولوا على الله ما لا يعلمون بأن يحلوا ما حرم الله تعالى ويحرموا ما أحل الله ، وما إلى ذلك . ولننظر إلى الجملة التي تستعمل فى الآية الكريمة دليلاً على مدى عداوة الشيطان للإنسان وحرصه على التّمكن الكامل منه والعياذ بالله تعالى . إنها جملة : « يأمر » وليس وراء هذه الجملة فى الدّلالة على منتهى عداوته وراء .

---

(١) تفسير القرطبي ص ٥٨٩ والبحر المحيط ١ / ٤٨٠ .
(٢) تفسير القرطبي ص ٥٨٩ والبحر المحيط ١ / ٤٨٠ .
(٣) البحر المحيط ١ / ٤٧٧ .
(٤) الجلالين .
(٥) تفسير القرطبي ص ٥٨٩ والبحر المحيط ١ / ٤٨٠ .

﴿١٧٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ

الآية الكريمة تشير إلى الضلال البعيد والعمى الشديد الذى فيه الكافرون المقلدون لآبائهم . قيل إنَّ الآية الكريمة فى كفار العرب وعن ابن عباس : نزلت فى اليهود[1] واليهود أشد الناس اتباعاً لأسلافهم[2] والمراد أنَّ هؤلاء الضالين المقلّدين لآبائهم الضالين تقليداً أعمى ، إذا قال لهم الرسول ﷺ ومن يتبعه من المؤمنين اتبعوا ما أنزل الله تعالى من كتاب كريم أنزله الله على خاتم الأنبياء والمرسلين وأمر نبيه ﷺ أن يبيّنه للناس قالوا لا نتبع ما أنزل الله تعالى بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا . وهنا يكون فى الآية الكريمة إنكار عليهم وتعجب منهم فى هيئة السؤال التوبيخي ؟ : أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ؟ والمراد : أيتبعونهم ولو كانوا لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ؟ والمعنى والله أعلم : انكار اتّباع آبائهم فى كل حال ، حتى فى الحالة التي لاتناسب أن يتّبعوا فيها وهى تَلَبُّسُهُمْ بعدم العقل وعدم الهداية . ولذلك لا يجوز حذف هذه الواو الداخلة على لو إذا كانت تنبيهاً على أنَّ ما بعدها لم يكن يناسب ما قبلها[3] وبهذا يتبين أن لو جاءت لاستقصاء الأحوال التي يقع فيها الفعل ، ولتدلّ على أنَّ المراد بذلك وجود الفعل فى كل حال ، حتى فى هذه الحال التي لاتناسب الفعل[4] وقد قدّمت الإشارة إلى العقل على الإشارة إلى الهداية لأن الهداية ثمرة استعمال نعمة العقل استعمالاً صحيحاً .

---

(١) تفسير القرطبي ص ٥٩٠ وانظر البحر المحيط ١ / ٤٨٠ .

(٢) البحر المحيط ١ / ٤٨٠ .

(٣) البحر المحيط ١ / ٤٨١ .

(٤) البحر المحيط ١ / ٤٨١ .

﴿١٧١﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ

**النعيـــق** : زجر الغنم والصياح بها . يقال : نَعَق الراعي بغنمه ينعِق نعيقاً ونَعقانا ، أي صاح بها وزجرها . قال الأخطل :

إنْعِقْ بضأنك يا جرير فإنَّما  منَّتْك نفسك فى الخلاء ضلالاً(١)

**والدّعـاء** : للقريب . والنّداء للبعيد . ولذلك قيل للأذان بالصلاة نداء لأنه للأباعد(٢) ويقال : فلان أندى صوتاً من فلان أى أقوى وأشد وأبعد مذهباً(٣) .

ومعنى الآية الكريمة ، والله تعالى أعلم : ومثل الذين كفروا وداعيهم إلى الهدى والفلاح ، وهو محمد بن عبد الله ﷺ ، وعدم استجابة هؤلاء الكفار للداعي وعدم فهمهم عنه ، كمثل الراعي الذى يصيح بغنمه ويزجرها وهي لا تسمع إلا دعاءً ونداءً ، دون أن تفهم شيئاً . إنَّ حال هؤلاء الكفار وموقفهم من الدعوة إلى صراط العزيز الحميد كحال الإبل والبقره والغنم والحمير التي لا تفهم(٤) مما يقول لها الراعي الحريص على مصلحتها شيئاً . إنَّ هؤلاء الكفار صمٌّ فهم لا يسمعون سماع تدبر ، وهم بكم لا يقولون كلمة الحق فلا يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وهم عمي لا يبصرون نور الهداية الذى تبصره عين البصيرة النيرة وقد قال تعالى(٥) : « فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » . وكانت النتيجة أن هؤلاء الكفّار لا يعقلون لأنهم لم ينتفعوا بنعمة العقل التي امتن الله تعالى بها عليهم ، ولم يستعملوها استعمالاً صحيحاً كما ينبغي أن يكون الاستعمال .

وإلى هذا الرأى ذهب ابن عباس وعكرمة وعطاء ومجاهد وقتادة والحسن والرّبيع والسُّدّى وسيبويه(٦) والزّجّاج والفرّاء(٧) .

---

(١) تفسير القرطبي ص ٥٩٤ وانظر الكشاف ١ / ٢٥٠ والبحر المحيط ١ / ٤٧٧ .
(٢) انظر تفسير القرطبي ص ٥٩٤ .  (٣) البحر المحيط ١ / ٤٧٧
(٤) البحر المحيط ١ / ٤٨٢ .  (٥) سورة الحج : ٤٦ .
(٦) انظر البحر المحيط ٤٨٢/١ وتفسير القرطبي ص ٥٩٣ وامثال القرآن لابن القيم ص ٤٩ وتفسير ابن كثير ٢٠٤/١
(٧) انظر تفسير القرطبي ص ٥٩٣ .

﴿١٧٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ

كان الخطاب من ذى قبل لكل الناس وفيهم المؤمنون : « يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالاً طيباً ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنّه لكم عدو مبين » ويكون الخطاب هنا خاصاً بالمؤمنين لأنهم هم المستفيدون حقاً من هذه التعليمات القيمة ، وهم الذين يحققون الهدف الذى خلقهم الله تعالى من أجله بعبادته جل وعلا وحده لا شريك له . وإنَّ ثمّة فرقا جو هرياً بين طبيعتي الخطاب . إن الناس يخاطبون بقصد تنبيههم إلى الأمور الأقرب إلى كونها ضرورية . فالحديث يشمل أكلهم من كل ما فى الأرض شريطة أن تتوفر فيه أهم المتطلبات الأولية بأن يكون حلالاً طيباً . ويقترب من هذه الشروط الأوّليّة نهيهم عن اتباع خطوات الشيطان ، وهذا أمر ضرورى يترتب عليه طلب القيام بالتكاليف المطالب بها المخاطبون . أما المؤمنون فيقتصر الحديث عن الطعام على صفة الطيب ويدخل فيها الحلال لأنها مبنيّةٌ عليه فى الآية الكريمة الشاملة لكل الناس وفيهم المؤمنون . ثم إنَّ الآية الكريمة تنص على كون هذه الطيبات هي مما رزقهم الله تعالى ، وفى ذلك تعميق للحلال وللمستلذ « لأن ما رزقه الله لا يكون إلا حلالاً »[1] ويطلب من المؤمنين وقد أكلوا من الحلال الطيب الذى رزقهم الله تعالى أن يشكروا له جل وعلا كفاء نعمة وآلائه التي لا تحصى إنْ كانوا يعبدونه وحده جل وعلا ولا يشركون معه سواه .

وهكذا يتبيّن أنَّ المؤمنين المتقين يتميز خطابهم بمجموعة من الصّفات والتنبيهات والتكاليف تتمشى مع منزلتهم الرفيعة الخاصة بهم عند بارئهم جل وعلا . « وفى صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : أيها الناس إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً . وإنَّ الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين . قال الله تعالى : يا أيها الرُّسُل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إنّى بما تعملون عليم . وقال : يا أيها الذين آمنوا

(١) الكشاف ١ / ٢٥٠ .

كلوا من طيبات ما رزقناكم . ثم ذكر الرجل يطيل السّفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السّماء ياربّ ياربّ ومطعمه حرام وملبسه حرام وغُذِي بالحرام . أنىّ يستجاب له »[1] . « وعن النبي ﷺ . يقول الله تعالى : إنىّ والجنّ والإنس فى نبأٍ عظيم . أخلق ويعبد غيرى . وأرزق ويشكر غيرى »[2] .

« واشكروا لله ، هذا من الالتفات إذ خرج من ضمير المتكلم إلى اسم الغائب . وحكمة ذلك ظاهرة لأن هذا الاسم الظاهر متضمن لجميع الأوصاف التي منها وصف الإنعام والرزق »[3] « وإيّا هنا مفعولٌ مقدّم . وقدّم لكون العامل فيه وقع رأس آية ، وللاهتمام به والتّعظيم لشأنه لأنّه عائد على الله تعالى كما فى قولك : وإيّاك نستعين »[4]

---

(١) تفسير القرطبي ص ٥٩٤ ، وتفسير ابن كثير ١/٢٠٥ وفى القرطبي : « فأنّى يستجاب لذلك » .

(٢) الكشاف ١/٢٥٠ .

(٣) البحر المحيط ١ / ٤٨٥ .

(٤) البحر المحيط ١ / ٤٨٥ .

﴿١٧٣﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ

إنّما : كلمةٌ موضوعة للحصر تتضمن النّفي والإثبات فتثبت ما تناوله الخطاب وتنفى ما عداه . وقد حصرت ها هنا التحريم ، لا سيّما وقد جاءت عقب التحليل فى قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم » . فأفادت الاباحة على الإطلاق . ثم عقبها بذكر المحرّم بكلمة إنّما الحاصرة ، فاقتضى ذلك الإيعاب للقسمين . فلا محرّم يخرج عن هذه الآية . وهي مدنيّ وأكدها بالآية الأخرى[1] وهي التي روى أنها نزلت بعرفة : قل لا أجد فيما أوحى إلى محرّما على طاعم يطعمه إلى آخرها فاستوفى البيان أولاً وآخرا »[2] .

الميتة : ما فارقته الروح من غير ذكاةٍ مما يذبح[3] .

الدم : المراد به الدم المسفوح . وقد جاء فى سورة الأنعام[4] قوله تعالى : « قل لا أجد فيما أوحي إليّ محرَّماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتةً أو دما مسفوحاً أو لحم خنزيرٍ فإنّه رجسٌ أو فسقاً أُهِلَّ لغير الله به . فمن اضطرّ غير باغٍ ولا عادٍ فإن ربّك غفور رحيم ».

وهذه الآية عامة دخلها التخصيص بقوله عليه السلام : « أحلّت لنا ميتتان الحوت والجراد ودمان الكبد والطّحال » أخرجه الدار قطني[5] ولحم الخنزير : خص الله تعالى ذكر اللّحم من الخنزير ليدلّ على تحريم عينه . ذُكِّيَ أو لم يُذَكّ وليعم الشّحم وما هنالك من الغضاريف وغيرها[6] وأجمعت الأمّة على تحريم شحم الخنزير[7] ولا خلاف أن جملة

---

(١) المشهوران الآية ٣ من سورة المائدة هي التي نزلت بعرفة .
(٢) تفسير القرطبي ص ٥٩٥ .
(٣) تفسير القرطبي ص ٥٩٦ والبحر المحيط ١ / ٤٨٧ .
(٤) الآية : ١٤٥ .
(٥) تفسير القرطبي ص ٥٩٦ وتفسير ابن كثير ١ / ٢٠٥ .
(٦) تفسير القرطبي ص ٦٠١ .
(٧) تفسير القرطبي ص ٦٠١ .

الخنزير محرمة »[1] . وفي خنزير الماء خلاف . وأبى مالك أن يجيب فيه بشيء[2] .

وما أهل به لغير الله : أى ذكر عليه اسم غير الله تعالى . وهي ذبيحة المجوسي والوثني والمعِطّل . فالوثني يذبح للوثن . والمجوسي للنار . والمعطل لا يعتقد شيئاً فيذبح لنفسه[3] والإهلال ، رفع الصوت . يقال : أَهَلّ بكذا أى رفع صوته[4] ومنه إهلال الصّبيّ واستهلاله وهو صياحه عند ولادته وقال ابن عباس وغيره : المراد ما ذبح للأنصاب والأوثان[5] وجرت عادة العرب بالصياح باسم المقصود بالذّبيحة وغلب ذلك فى استعمالهم حتى عبّر به عن النيّة التي هي علّة التّحريم . ألا ترى أن على بن أبي طالب رضى الله عنه راعى النية فى الإبِل التي نحرها غالب أبو الفرزدق فقال : إنها مما أهلّ لغير الله به فتركها الناس[6] .

فمن اضطر : أى أُحْوج إلى شيء من هذه المحرّمات فهو افتعل من الضّرورة[7] .

غير باغ : غير نُصِب على الحال[8] وباغ أصله باغي ثقلت الضمة على الياء فسكّنت، والتنوين ساكن فحذفت الياء والكسرة دالة عليها . والمعنى فيما قال قتادة والحسن والربيع وابن زيد وعكرمة : غير باغ فى أكله فوق حاجته[9] .

ولا عاد : بأن يجد عن هذه المحرّمات مندوحة ويأكلها[10] . وقال السُّدّى : غير باغ فى أكلها شهوةً وتلذذاً . ولا عاد باستيفاء الأكل إلى حدّ الشّبع[11] .

---

(١) تفسير القرطبي ص ٦٠١ وانظر البحر المحيط ١ / ٤٨٨ .
(٢) تفسير القرطبي ص ٦٠٢ .
(٣) تفسير القرطبي ص ٦٠٢ .
(٤) تفسير القرطبي ص ٦٠٢ والبحر المحيط ١ / ٤٨٨ .
(٥) تفسير القرطبي ص ٦٠٢ وانظر البحر المحيط ١ / ٤٨٨ .
(٦) تفسير القرطبي ص ٦٠٢ وانظر البحر المحيط ١ / ٤٨٨ .
(٧) تفسير القرطبي ص ٦٠٣ .
(٨) تفسير القرطبي ص ٦١٠ .
(٩) تفسير القرطبي ص ٦١٠ وانظر البحر المحيط ١ / ٤٨٩ .
(١٠) تفسير القرصبي ص ٦١٠ وانظر البحر المحيط ١ / ٤٨٩ .
(١١) تفسير القرطبي ص ٦١٠ وانظر البحر المحيط ١ / ٤٨٩ .

وعـاد : اسم فاعل من عدا وليس اسم فاعل من عاد[1] .

والإثم : تحمّل الذنب[2] .

طلبت الآية الكريمة السابقة من المؤمنين أن يأكلوا من طيّبات ما رزقهم الله تعالى وأن يشكروا له جل وعلا على نعمه وآلائه . وهذه الآية الكريمة تبيّن ما حرّم الله تعالى أكله لأنه ليس من الحلال وليس من الطيب . وقد أجملت الآية الكريمة ما فصّلت آيتا المائدة والانعام . فذكرت الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير وما ذُكِر عليه فى أثناء الذبح غيرُ اسمِ الله تعالى . فإذا اضطر المؤمن لأكل شيء من هذه المحرمات غَيْرَ باغ ولا عاد ، بمعنى غير باغ فى أكله فوق حاجته ، وغير باغ فى أكلها شهوة وتلذذاً ، وغير عاد بأن يجد عن هذه المحرمات مندوحة ويأكلها ، أو أن يستوفى الأكل إلى حد الشبع ، فلا إثم على هذا المضطر ، إنَّ الله غفور رحيم . جاء فى سورة المائدة[3] قوله تعالى : « حرّمت عليكم الميتة والدّم ولحم الخنزير وما أُهِلّ لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذَكّيتم وما ذُبح على النُّصب وأن تستقسموا بالأزلام ذلكم فسق . اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون . اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً . فمن اضطر فى مخمصة غير متجانف لإثْمٍ فإنّ الله غفور رحيم » . وجاء فى سورة الأنعام[4] قوله تعالى : « قل لا أجد فيما أوحي إلى محرَّما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس أو فِسْقاً أُهِلَّ لغير الله به . فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم » .

مسألة : إذا وجد المضطر ميتة وطعام الغير بحيث لا قطع فيه ولا أذًى فإنّه لا يحل له أكل الميتة بل يأكل طعام الغير بغير خلاف[5] .

---

(١) البحر المحيط ١ / ٤٩٠ .
(٢) البحر المحيط ١ / ٤٩٠ .
(٣) الآيـة : ٣ .
(٤) الآيـة : ١٤٥ .
(٥) انظر هنا تفسير القرطبي ص ٦٠٤ وتفسير ابن كثير ١ / ٢٠٥ .

﴿١٧٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ

تعّمق هذه الآية الكريمة ذات المعنى الذى أشارت إليه الآية الكريمة السابقة رقم (١٥٩) قال تعالى : « إنَّ الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيّناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللّاعنون » .

ورى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنّها نزلت فى علماء اليهود الذين كتموا نعته ﷺ حِرْصاً على منافع دنيويّة رخيصة(١) والآية الكريمة وراء ذلك تصحّ فى حق كل من قام بهذا العمل السّيّء ذاته . فهؤلاء الذين يكتمون ما أنزل الله تعالى من الكتاب فى تبيين صفته ﷺ وصحة رسالته ، ويشترون فى مقابل ذلك الكتمان وخيانة أمانة العلم التي ائتمنوا عليها بأن يظهروها ولا يكتموها ، ثمناً قليلاً من مال أو جاه أو سلطان ، مصيره وإنْ طال به الأمد إلى فناء فلا بركة فيه مطلقاً ، أولئك ما يأكلون فى بطونهم من ذلك الثمن الذى يغلب عليه المال ، الذى يغلب على انفاقه بدَوْره أن يكون من أجل الطعام ، إلاّ النار ، لأنّهم بسبب أكل تلك الأموال بالباطل يئولون إلى النّار وبئس المصير ، فكأنّهم إنّما أكلوا فى الحياة الدّنيا النّار التي يدخلونها يوم القيامة . وبذلك تأخذ الآية الكريمة بسبب من قوله تعالى فى سورة النساء(٢) : « إنَّ الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنّما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً » وهم في مقابل عدم كلامهم بالحق فى الدّنيا لايكلمهم الله تعالى يوم القيامة دليلاً على غضبه عليهم وعدم رضاه عنهم . وبما أنهم بدلاً من إعلانهم للحق وشهادتهم به أعلنوا الباطل وشهدوا به ، وإلى ذلك أشار مثلا قوله تعالى من سورة النساء(٣) : « ألم تر إلى الذين أوتو نصيباً من الكتاب يؤمنون

---

(١) انظر هنا البحر المحيط ١ / ٤٩١ وتفسير القرطبي ٦١٢ والجلالين وتفسير ابن كثير ١ / ٢٠٦ .

(٢) الآيـة : ١٠ .

(٣) الآيـة : ٥١ .

بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً » فهم بمثابة شهود الزور ، يستحقّون ألا يزكيهم الله تعالى يوم القيامة كفاء إدلائهم بشهادة الزور فى الحياة الدنيا فى أخطر قضية ، قضيّة ارسال خاتم الأنبياء والمرسلين وإنزال آخر الكتب السماوية وأشرفها(١) « ولا يزكيهم ، أي لا يصلح أعمالهم الخبيثة فيطهرهم . وقال الزجاج : لا يثنى عليهم خيراً ولا يسمّيهم أزكياء »(٢) .

وتتوّج مظاهر العقاب المختلفة بأعمها وأشملها « ولهم عذاب أليم » .

---

(١) انظر هنا الكلام العظيم لأبي حيان فى البحر المحيط ١ / ٤٩٣ .

(٢) تفسير القرطبي ص ٦١٣ .

﴿١٧٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ

أشارت الآية الكريمة السابقة إلى أن علماء السَّوْء الذين كتموا ما أنزل الله تعالى من الكتاب إنما اشتروا به ثمناً قليلاً ، وبما أن ما قدموا للناس من أكاذيب بدلاً من الحقائق وما أخذوا من حطام الدنيا الرخيص ، كان عن علم وحب ، عِلْمَ من يشترى الشيء الذى يُحِبّ ، فقد جاءت الإشارة ، فى هذه الآية الكريمة التالية كذلك ، لعملية الشراء الخاسرة . فقد اشترى القوم الضلالة بالهدى ، واشتروا العذاب المترتب على الضلالة مقابل المغفرة التي كانوا يستطيعون بفضل من الله تعالى وعون أن يحصلوا عليها ويشتروها ولكنّهم لم يفعلوا .

إنَّ هذا التصرف الذى لا يكاد يصدر من جاهل أحمق فضلاً عن صدوره من عالم متخصص ، فى هذا الحَقْل بالذات ، وعلى علم تام بما يقدم عليه من آثام وما ينتظره من عذاب وآلام ، يستحق معه كل من لديه بقية من إيمان وَمُسكة من عقل أن يعجب لصبر هؤلاء على النار التي يعلمون يقيناً أنهم بأفعالهم السيئة تلك داخلوها . « قوله تعالى : فما أصبرهم على النار ، مذهب الجمهور ، منهم الحسن ومجاهد أن ما ، معناه التَّعجُّب . وهو مردود إلى المخلوقين كأنّه قال : اعجبوا من صبرهم على النار ومكثهم فيها . وفى التّنزيل : قتل الإنسان ما أكفره . وأَسْمِعْ بِهِمْ وأَبْصِر . وبهذا المعنى صدر أبو علي »[1] .

(١) تفسير القرطبي ص ٦١٤ .

﴿١٧٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ

تبينا بشأن الآيتين الكريمتين السابقتين أن المراد بالذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب عن عمد وسابق اصرار فاستحقوا العذاب الشديد ، هم علماء اليهود فى المقام الأول ، وتنطبق الآية الكريمة وراء ذلك على كل من قام من العلماء بالعمل الشنيع ذاته . وإنَّ الآية الكريمة التالية ذات علاقة من نوع ما بسابقتيها . فذلك العذاب الشديد الذى لحق بذلك الفريق من علماء السَّوْء ، بسبب أن الله تعالى نزَّل الكتاب بالحق . والمراد بالكتاب فى المقام الأول التوراة . والمراد بالحق الصدق وقيل الحجة(١) وقال ابن عباس : بالعدل(٢) فقد أنكر اليهود مثلاً صفة عيسى عليه السلام فى التّوراة(٣) كما أنّهم خالفوا ما فى التّوراة من صفة محمّدٍ ﷺ واختلفوا فيها(٤) ويشمل لفظ الكتاب وراء ذلك كلاً من الإنجيل والقرآن . ففي الإنجيل توجد صفة المصطفى ﷺ . وجاء عن القرآن الكريم فى سورة الاسراء(٥) : « وبالحقّ أنْزلناه وبالحقّ نزل » ومع ذلك يزعم كفّار مكّة أن القرآن الكريم ضربٌ من الشّعْر أو السّحر أو الكهانة أو اساطير الأولين .

إن الآية الكريمة لتقرّر بصريح اللّفظ أنَّ الذين اختلفوا فى جنس الكتاب الذى أنزله الله تعالى بالحق ، ويستوى فى ذلك علماء اليهود والنصارى وكفار قريش ، لفي خلاف بعيد عن الحقّ(٦) .

---

(١) تفسير القرطبي ص ٦١٥ .
(٢) البحر المحيط ١ / ٤٩٥ .
(٣) انظر تفسير القرطبي ص ٦١٥ .
(٤) تفسير القرطبي ص ٦١٥ .
(٥) الآيـة : ١٠٥ .
(٦) انظر الجلالين والكشاف ١/٢٥١ والبحر المحيط ١/٤٩٦ .

﴿١٧٧﴾ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ

سبب النزول :

اختلف مَنِ المراد بهذا الخطاب فقال قتادة : « ذكر لنا أنّ رجلاً سأل نبي الله ﷺ عن البِرّ فأنزل الله هذه الآية قال : وقد كان الرجل قبل الفرائض إذا شهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً عبده ورسوله ثم مات على ذلك وجبت له الجنة فأنزل الله هذه الآية . وقال الرّبيع وقتادة أيضاً : الخطاب لليهود والنصّارى لأنّهم اختلفوا فى التّوجّه والتّولّى . فاليهود إلى المغرب قِبَلَ بيت المقدس والنّصارى إلى المشرق مطلع الشمس . وتكلّموا فى تحويل القبلة وفضّلت كل فرقة توليتها فقيل لهم : ليس البر ما أنتم فيه ولكنّ البر من آمن بالله[1] وقيل : كثر خوض المسلمين وأهل الكتاب فى أمر القبلة فقيل : ليس البر العظيم الذى يجب أن تذهلوا بشأنه عن سائر صنوف البر أمر القبلة . ولكن البر الذى يجب الاهتمام به وصرف الهمة بر من آمن وقام بهذه الأعمال[2] وقيل سبب نزولها انكار الكفار على المؤمنين تحويلهم عن بيت المقدس إلى الكعبة[3] .

ومناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة لأنّها إنْ كانت فى أهل الكتاب فقد جرى ذكرهم بأقبح الذكر مِنْ كتمانهم ما أنزل الله واشترائهم به ثمناً قليلاً وذكر ما أعدّ لهم ولم

---

(١) تفسير القرطبي ص ٦١٥ وانظر البحر المحيط ٢/٢ والكشاف ١/٢٥١ وتفسير ابن كثير ١ / ٢٠٧ .
(٢) الكشاف ١ / ٢٥١ . (٣) البحر المحيط ٢ / ٢ .

يبق لهم مما يظهرون به شعار دينهم إلاّ صلاتهم وزعمهم أنّ ذلك البر ، فردّ عليهم بهذه الآية . وإنْ كانت فى المؤمنين . فهو نهيٌ لهم أن يتعلقوا من شريعتهم بأيسر شىء كما تعلّق أهل الكتابين ، ولكن عليهم العمل بجميع ما فى طاقتهم من تكاليف الشريعة على ما بيّنها الله تعالى(١) .

البر : اسم جامع للخير(٢) .

قرأ حمزة وحفص البر بالنصب . لأن ليس من أخوات كان . يقع بعدها المعرفتان فتجعل أيّهما شئت الاسم أو الخبر . فلما وقع بعد ليس البر نصبه وجعل أن تولوا الاسم . وكان المصدر أولى بأن يكون اسما لأنه لا يتنكر . والبرّ قد يتنكرّ والفعل أقوى فى التعريف . وقرأ الباقون بالرفع على أنه اسم ليس وخبره أن تولوا تقديره : ليس البرُّ تولَيتكُمْ وجوهَكُم . وعلى الأوّل ليس توليتُكم وجوهَكم البرّ ، كقوله(٣) : ما كان حُجَّتَهُمْ ألا أن قالوا . ثم كان عاقبةَ الّذين أسأوا السوأى أن كذبوا(٤) فكان عاقبتَهما أنّهما فى النار(٥) وما كان مثله(٦) .

قبل : ظرف مكان تقول : قِبَلك . وشرح المعنى أنّه فى المكان الذى هو مقابلك فيه . وقد يتّسع فيه فيكون بمعنى العِنْدية المعنوية . تقول : لي قِبَل زيدٍ دين(٧) .

الكتاب : اسم جنس يشمل الكتب المنزلة من السماء على الأنبياء حتى ختمت بأشرفها وهو القرآن المهيمن على ما قبله من الكتب(٨) .

على حبّه : الظّاهر أنّ الضّمير فى حبه عائد على المال لأنّه أقرب مذكور . ومن قواعد النحويّين أنّ الضّمير لايعود على غير الأقرب إلاّ بدليل(٩) .

---

(١) البحر المحيط ٢ / ٢ .
(٢) تفسير القرطبي ص ٦١٦ .
(٣) سورة الجاثية : ٢٥ .
(٤) سورة الروم : ١٠ .
(٥) سورة الحشر : ١٨ .
(٦) تفسير القرطبي ص ٦١٥ .
(٧) البحر المحيط ١ / ٤٩٧ .
(٨) تفسير ابن كثير ١ / ٢٠٧ .
(٩) البحر المحيط ٢ / ٥ .

ابن السبيل : هو المسافر المجتاز الذى قد فرغت نفقته فيعطى ما يوصله إلى بلده ، وكذا الذى يريد سفراً فى طاعة ، فيعطى ما يكفيه فى ذهابه وإيابه ويدخل فى ذلك الضيف كما قال عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس[1] وفى الرقاب : هم المكاتبون يعانون فى فك رقابهم . قاله عليّ وابن عباس والحسن وابن زيد والشافعي . أو عبيد يشترون ويعتقون قاله مجاهد ومالك وأبو عبيد وأبو ثور . وروي عن أحمد القولان السّابقان . أو الأسارى يفدون وتفكّ رقابهم من الأسر . وقيل هؤلاء الأصناف الثلاثة وهو الظاهر[2] .

**البأســـــاء** : شدة الفقر أو الشدة والفقر[3] .

**والضـــــراء** : المرض والزّمانة[4] .

**وحين البـأس** : أى وقت شدة القتال[5] .

بعد أن تحدثت آيات سابقات فى شأن القبلة وتحويلها ولا معقّب لحكمه جل وعلا ، تحدثت هذه الآية الكريمة عن القبلة من إحدى زواياها . إنّها تبيّن للذين يتّجه إليهم الخطاب بأن البِرّ الذى ينبغي أنْ يستحوذ على نفوسهم ، ويسيطر على عقولهم ويملك قلوبهم ، أكبر من مجرد تولية وجوههم تجاه القبلة شرقاً وغرباً . إنّ البر أكبر من أمر القبلة ويشمل العديد من أوجه العبادات وأنواع الطاعات . فلنتدبر تلك الأوجه والأنواع والترتيب المعجز الذى جاءت فيه .

إن البِرّ بِرُّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب السماوية المنزلة على رسل الله تعالى ، وبالنبيين وآتى المال على حُبهّ ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة . والموفون بعهدهم إذا عاهدوا . والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس .

---

(١) تفسير ابن كثير ١ / ٢٠٨ . (٢) البحر المحيط ٢ / ٦ .

(٣) انظر الجلين وتفسير القرطبي ص ٦٢١ وتفسير ابن كثير ١/٢٠٩ والكشاف ١/٢٥٢ والبحر المحيط ٢/٨.

(٤) تفسير القرطبي ص ٦٢١ والجلالين وابن كثير ١ / ٢٠٩ والكشاف ١/٢٥٢ والبحر المحيط ٢/٨ والزّمانة بفتح الزّاى العاهة أو عدم بعض الاعضاء أو تعطيل القوى .

(٥) انظر تفسير القرطبي ص ٦٢١ والجلالين والبحر المحيط ٢ / ٨ .

إنَّ الآية الكريمة تبدأ بالإيمان بالله ، وهو أساس كل أمر ومبدؤه ويردف أول الأمور بآخرها وهو الإيمان باليوم الآخر ، لأننا بصدد أناس مؤمنين يرشدون إلى ثمرات المنهج التربوي القرآني اليانعة فهم أهل لأن يُجْمَعَ لهم فى نسق بين طرفى القضية المتباعدين ، البداية والنهاية ، الأول والآخر . ثم يأتى بعد ذلك تفصيل ما بينهما . وبالنظر إلى تفصيل الأمور بعد ذلك يتبين أنها تكمل جل أركان الإيمان . فثمة إيمان بالملائكة ، والمعروف أنهم رسله جلا وعلا إلى رسله من البشر . وهم الذين يحملون الكتب السماوية التي جاء ذكرها بعد ذكر الملائكة . وبما أنهم يحملون هذه الكتب إلى أنبياء الله تعالى ورسله فقد جاء ذكر الأنبياء بعد ذكر الكتب . قد جاء ذكر النبيين وليس المرسلين لأن فى ذكر النبيين ذكرا ضمنياً للمرسلين ، فكل رسول نبي ولا ينعكس .

وبعد ذكر جل أركان الإيمان ، ويدخل فى الإيمان بالله تعالى الإيمان بقضائه جل وعلا وقدرته ، يتمّ التّحول إلى جانب من جوانب البِرّ ذى علاقة بالإنسان أخى الإنسان . ويكون الحديث من زاوية المال الذى فُطِر الإنسان على حبّه . وها هو ذا يُرْشَدُ إلى أوجه إنفاق المال الذى آتاه الله تعالى إياه تطوّعاً . وهنا نتبين أن السياق يرتب الفئات التي تؤتى المال وفق حكمة جليلة لا يمكن أن تخطئها عين البصير ، ويمكن أن يقال إنّ السياق يبدأ بالأولى فالأَوْلى .

إنَّ السّياق يبدأ بذى القربى ثبت فى الحديث : الصّدقة على المساكين صدقة وعلى ذوى الرحم اثنتان صدقة وصلة ، فهم أولى الناس ببّرك وإعطائك[1] وواضح أن ذوى القربى كثيرون غالباً . وجاء فى سورة البقرة[2] قوله تعالى : « يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل . وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم ».

---

(١) تفسير ابن كثير ١ / ٢٠٨ .

(٢) الآيـة : ٢١٥ .

ويتحول السياق إلى الذين يبتعدون عن الأقربين وهم وراء ذلك الأكثر حاجة . وهؤلاء هم اليتامى وهم الذين لا كاسب لهم وقد مات آباؤهم وهم ضعفاء صغار دون البلوغ والقدرة على التكسب(١) .

وبالمقارنة بين اليتامى من ناحية وبين الذين ذَكَرهم السياق بعد ذلك من ناحية أخرى وهم المساكين ، يتبين شدة ضعف اليتامى بَدَنِيًّا بالقياس إلى المساكين ويترتب على شدة الضعف شدة الحاجة لمديد العون . والمساكين هم الذين لا يجدون ما يكفيهم فى قوتهم وكسوتهم وسكناهم . فيعطون ما تسد به حاجَتُهُمْ وخَلَّتُهُمْ . وفى الصحيحين عن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال : ليس المسكين الذى لا يجد غِنًى يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه(٢) .

وذكر السياق بعد ذلك ابن السبيل وهو المسافر المنقطع لأنه فى حكم المسكين بسبب انقطاعه ، ولكن هذه الصفة طارئة وليست ثابتة ثباتها فى حق المسكين ، ثم إنَّ عدد أبناء السبيل عادة أقل من أعداد المساكين . وقد يجد المسافر المنقطع وخاصة إنْ كان غنياً فى بلده ، من الدوافع النفسية ما يحمله على أن يطلب العون على أن يسدّد ما عليه مستقبلاً . فإذا تحولنا إلى السائلين الذين ذكرهم السياق بعد ذلك تبين أنهم بسبب صعوبة الإقدام على السؤال لولا الباعث القوي على ذلك ، من القِلّةِ عَدَداً ، للدرجة التي أخر السياق ذكرهم عن أبناء السبيل . فالسائلون هم الذين يتعرضون للطلب فيعطون من الزكوات والصدقات كما قال الإمام أحمد إنّ رسول الله ﷺ قال : للسائل حق وإن جاء على فرس(٣) وقد ألمحت هذه الآية الكريمة من سورة البقرة إلى شيء من الحرج النفسي الذى يقع فيه العفيف حينما يهمّ بالسؤال قال تعالى (٤) : « للفقراء الّذين أُحْصِروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضرباً فى الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفّف تعرفهم بسيماهم لا يَسْألون الناس إلحافا . وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم » .

---

(١) تفسير ابن كثير ١ / ٢٠٨ .
(٢) تفسير ابن كثير ١ / ٢٠٨ .
(٣) تفسير ابن كثير ١ / ٢٠٨ .
(٤) سورة البقرة : ٢٧٣ .

وقد ختمت الآية الكريمة الحديث عن الفئات التي تؤتَي المال بأقلها وجوداً ، بأيّ معنى فسرنا قوله تعالى :« وفى الرقاب » فإنْ كان المقصود فك الرقاب من العتق ، فالمعروف أنه بتطبيق تعاليم الإسلام الذى شرع العتق لم يبق فى ديار الإسلام مسترق واحد . وإن كان المقصود فك رقاب الأسرى ، فهي أحوال مرتبطة بفترات معينة . والمعروف أن الآية الكريمة ذاتها ختمت بالاشادة بالصبر فى ميدان القتال فى سبيل الله تعالى لأن الحروب عادة لا تدوم .

ثم كان حديث الآية الكريمة عن الصلاة وهي عماد الدين ، تلا ذلك الحديث عن الزكاة ، والمعروف أن ذكر الزكاة مع الصلاة فى القرآن الكريم قد تردد فيما يزيد على الثمانين موضعاً . وفى ذكر الزكاة وهى ركن ، إيماء بأن إيتاء المال من ذى قبل من قبيل التطوع .

وجاء ذكر الوفاء بالعهود بعد ذلك ، وهي ذات شقين عهودٌ مع الله تعالى ومِنْ أقوى الأدلّة على الوفاء بها إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وعهود مع عباد الله تعالى .

وإذا بحثنا عن الصفة المشتركة بين كل أنواع الطّاعات التي أشارت إليها الآية الكريمة لتبيّنّا أنها صفة الصبر التي جاء الحديث عنها فى صيغة نحوية فريدة ، فُهِمَ معها مدح الصبر والحديث الخاص عنه « والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس » . وقد رتبت هذه الأحوال الثلاثة للصبر وفق كثرتها . فالمعروف أن انتشار الفقر أكثر من انتشار المرض وقد جاء فى الآية الكريمة ذكر كثير من الفئات المحتاجة إلى إيتائها المال ، وهى قد تكون فى مجموعها صحيحة جُثمانيا . وقد تأخر الحديث عن الصبر فى ميدان القتال فى سبيل الله لأن الحروب بطبعها لاتدوم .

وقد ختمت الآية الكريمة بالثناء على أولئك المؤمنين الذين تحقّقت فيهم صفات البر وذلك عن طريق الإشارة إلى رفيع مكانتهم فى موضعين أولئك الذين صدقوا وأولئك ...» إنَّ أولئك قد صدقوا فى ترجمة تلك النّعوت إلى أعمال وهم موصوفون بتقوى الله تعالى التي وصّى الله تعالى بها رسله وكلّ عباده جل وعلا .

# القصاص والوصية

الآيات : ١٧٨ - ١٨٢

﴿١٧٨﴾ ﴿١٧٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ

روى البخارى والنَّسائي والدارَ قطني عن ابن عباس قال : كان فى بني اسرائيل القصاص ولم تكن فيهم الدية ، فقال الله لهذه الأمة : كتب عليكم القصاص فى القتلى ، الحرّ بالحرّ والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى . فمن عُفِيَ له من أخيه شيء فالعفْو أن يقبل الدّية في العمد . فاتّباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ، يتبع بالمعروف ويؤدّى بإحسان . ذلك تخفيفٌ من ربكم ورحمة ، ممّا كتب على من كان قبلكم . فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم . قتل بعد قبول الدية . هذا لفظ البخارى(١) .

قال الشعبي وقتادة وغيرهما : إنّ أهل الجاهلية كان فيهم بغي وطاعة للشيطان . فكان الحيّ إذا كان فيه عزٌّ ومنعة فقتل لهم عبد قتله عبد قوم آخرين قالوا ، لانقتل به إلاحُرّا . وإذا قُتِلَتْ منهم امرأة قالوا : لا نقتل فيها إلا رجلاً . وإذا قتل لهم وضيع قالوا : لا نقتل به الا شريفاً . ويقولون : القتل أوقى للقتل بالواو والقاف . ويُرْوى أبقى بالباء والقاف . ويُرْوى أنفى بالنون والفاء . فنهاهم الله عن البغي فقال : كتب عليكم القصاص فى القتلى الحرّ بالحرّ والعبد بالعبد الآية . وقال : ولكم فى القصاص حياة . وبين الكلامين فى الفصاحة والجزل بون عظيم »(٢) .

---

(١) تفسير القرطبي ص ٦٢١ وانظر البحر المحيط ٢ / ٨ .

(٢) تفسير القرطبي ص ٦٢٢ .

ولو أنا رغبنا فى تبيين بعض مظاهر الترابط أو العلاقة بين حديث الآيتين الكريمتين عن القصاص وبين الآيات الكريمات السابقات فإنّ فى الإمكان القول إنّ الآية السابقة آية البر أو آية الإيمان ، إذا كانت فى حديثها عن علاقة الإنسان بالإنسان من زاوية إيتاء ذى القربى حقّه من مال الله تعالى الذى آتاه الله تعالى الغنى ، وفى ذلك تقوية لأواصر الأخوة فى كل صورها ، وبناء لجسد الإنسان ذاته ، فإنّ الآية الكريمة التي تتحدث عن القصاص ، وفي ذلك هدم لجسد الإنسان بالحق ، تبدأ بمخاطبة المؤمنين بأهم صفاتهم ، ألا وهي صفة الإيمان ، وفى ذلك إشعار بأنه مع ارتكاب المؤمن هذا الذنب العظيم الذى يستحق معه أن يُقْتَصَّ منه ، فإنّ صفة الإيمان تظل ملازمةً له . وإذا كان حديث آية البر أو الإيمان عن علاقة الإنسان بالإنسان من زاوية إيتاء المال تطوّعاً أو فرضاً ، وفى ذلك نوع من الوفاء بالعهود مع الله تعالى ، فإنّ آية القصاص تحدثت فى بعض جوانبها عن أخذ الدية مالاً ، إضافةً إلى تقويتها لعلائق الأخوة بين الناس ، الإيمانية بخاصّة . ولا ننسى وراء ذلك حديث الآيات الكريمات السابقات عن المال ، وضرورة كونه حلالاً ، وإلاّ كان بمثابة أكل النار فى البطن لأن أكل ما حرم الله تعالى عموماً يؤدى إلى النار وبئس القرار والعياذ بالله تعالى .

كتب معناه فرض وأثبت . ومنه قول عمر بن أبي ربيعة :

كتب القتـــل والقتـــال علينـــا وعلى الغانيـــات جر الذيـــول

وقد قيل : إنّ كتب هنا إخبارٌ عمّا كتب فى اللّوح المحفوظ وسبق به القضاء[1] وأصل الكتابة الخطّ الذى يقرأ . وعبّر به هنا عن معنى الإلزام والإثبات . أي فرض وأثبت لأنّ ما كتب جديرٌ بثبوته وبقائه[2] .

وتعدّى كتب هنا بعلى يشعر بالفرض والوجوب[3] .

القصاص : مصدر قاصّ يقاصّ مقاصة وقصاصاً نحو قاتل يقاتل مقاتلة وقتالاً[4]

---

(١) تفسير القرطبي ص ٦٢٢ .
(٢) البحر المحيط ٢ / ٩ .
(٣) البحر المحيط ٢ / ٩ .
(٤) البحر المحيط ١/٤٩٧ .

والقصاص مأخوذ من قصّ الأثر وهو اتّباعه . ومنه القاصّ لأنه يتبع الآثار والأخبار . وقصّ الشّعر اتّباع أثره . فكأنَّ القاتل سلك طريقاً من القتل فقُصَّ أثره فيها ومُشِيَ على سبيله فى ذلك . ومنه : فارتدّا على آثارهما قصصاً . وقيل : القصّ القطع . يقال : قصصت ما بينهما . ومنه أخذ القصاص لأنّه يجرحه مثل جرحه أو يقتله به يقال : اقتصّ الحاكم لفلان من فلان وأباءبه فأمثله فأمتثله منه أى اقتصّ منه[1] .

وفى القتلى : فى هنا للسّببية ، أى بسبب القتلى . مثل : دخلت امرأة النّار فى هرّة[2] .

« والقتلى جمع قتيل ، لفظ مؤنّث تأنيث الجماعة . وهو ممّا يدخل على الناس كرها ، فلذلك جاء فى هذا كجرحى وزَمنْى[3]وحمقى وصرعى وغرقى وشبههن »[4] .

« قوله تعالى : الحرّ بالحرّ والعبد والأنثى بالأنثى الآية . اختلف فى تأويلها . فقالت طائفة : جاءت الآية مبيّنةً لحكم النّوع إذا قتل نوعه . فبيّنت حكم الحرّ إذا قتل حرّاً ، والعبد إذا قتل عبداً ، والأنثى إذا قتلت أنثى . ولم تتعرض لأحد النّوعين إذا قتل الآخر . فالآية محكمة . وفيها إجمالٌ يبنّه قوله تعالى[5] : «وكتبنا عليهم فيها أنَّ النفس بالنفس». وبيّنه النبيّ ﷺ بسنّته لماْ قَتَلَ اليهوديَّ بالمرأة قاله مجاهد، وذكره أبو عبيد عن ابن عباس.

وروي عن ابن عباس أيضاً أنّها منسوخة بآية المائدة ، وهو قول أهل العراق ... قال الكوفيون والثّورى : يقتل الحرّ بالعبد والمسلم بالذّمّي واحتجوا بقوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى فعمّ . وقوله : وكتبنا عليهم فيها أنّ النّفس بالنّفس قالوا : والذّمّيّ مع المسلم متساويان فى الحرمة التي تكفى فى القصاص ، وهى حرمة الدّم الثابتة على التأبيد ، فإنّ الذّميّ محقون الدّم على التأبيد . والمسلم كذلك ، وكلاهما قد صار من أهل دار الإسلام . والذى يحقّق ذلك أنّ المسلم يقطع بسرقة مال الذمّي . وهذا يدلّ على أنَّ مال الذّمّيّ قد ساوى مال المسلم . فدلّ على مساواته لدمه ، إذا لمال إنّما يحرم بحرمة مالكه . واتّفق أبو حنيفة والثّوريّ وابن أبي ليلى وأصحابه على أنّ

---

(١) تفسير القرطبي ص ٦٢٢ .
(٢) البحر المحيط ٢ / ٩ .
(٣) جمع زمين وهو المصاب بالزّمانة أى العاهة وعدم بعض الأعضاء .
(٤) تفسير القرطبي ص ٦٢٣ .
(٥) سورة المائدة : ٤٥ .

الحّر يقتل بالعبد كما يقتل العبد به . وهو قول داود . وروي ذلك عن عليّ وابن مسعود رضي الله عنهما . وبه قال سعيد بن المسيب وقتادة وإبراهيم النّخعيّ والحكم بن عيينة . والجمهور من العلماء لا يقتلون الحرّ بالعبد للتنويع والتّقسيم فى الآية ... والجمهور أيضاً على أنّه لا يقتل مسلم بكافر لقوله ﷺ : لا يقتل مسلم بكافر أخرجه البخاري عن عليّ بن أبي طالب ... وأجمع العلماء على قتل المرأة بالرجل والرجل بها ...(١) .

والظاهر من الآية الكريمة مشروعية القصاص فى القتلى بأيّ شيء وقع القتل من مثقل ، حجر أو خشبة أو عصا أو شبه ذلك ممّا يقتل غالباً . وهو مذهب مالك والشافعي والجمهور(٢) فمن عُفِيَ له من أخيه شيء . الظاهر أن من هو القاتل . والضّمير فى له ومن أخيه عائد عليه(٣) فإن قلت : إنّ عفا يتعدى بِعَنْ لا باللام . فما وجه قوله : فمن عُفِيَ له ؟ قلت : يتعدى بِعَنْ إلى الجانى وإلى الذنب . فيقال : عفوت عن فلان وعن ذنبه . قال الله تعالى(٤) : عفا الله عنك وقال(٥) : عفا الله عنها . فإذا تعدى إلى الذّنب والجاني معا قيل : عفوت لفلان عما جنى ، كما تقول : غفرت له ذنبه وتجاوزت له عنه . وعلى هذا ما فى الآية ، كأنّه قيل : فمن عُفِيَ له عن جنايته فاستغنى عن ذكر الجناية(٦) وقد اختلف العلماء فى تأويل من وعُفي على تأويلات أحدها أن من يراد بها القاتل . وعُفي تتضمن عافيا وهو وليّ الدّم . والأخ هو المقتول . وشيء هو الدّم الذى يُعْفى عنه ويرجع إلى أخذ الدية . هذا قول ابن عبّاس وقتادة ومجاهد وجماعة من العلماء . والعفو فى هذا القول على بابه الذى هو التّرك . والمعنى أنّ القاتل إذا عَفَى له وليّ المقتول عن دم مقتوله وأسقط القصاص فإنّه يأخذ الدية ويتبع بالمعروف ويؤدّى إليه القاتل بإحسان(٧) .

فاتّباع بالمعروف أى فعلى صاحب الدّم اتّباع بالمعروف في المطالبة بالدّية . وعلى القاتل أداءٌ إليه بإحسان ، أى من غير مماطلة وتأخير عن الوقت(٨) .

---

(١) تفسير القرطبي ص ٦٢٣ – ٦٢٥ .
(٢) البحر المحيط ٢ / ١١ .
(٣) البحر المحيط ٢ / ١٢ .
(٤) سورة الانفال ٤٣ .
(٥) سورة المائدة ١٠١ .
(٦) الكشاف ١ / ٢٥٣ .
(٧) تفسير القرطبي ص ٦٣١ .
(٨) تفسير القرطبي ص ٦٣٠ و ص ٦٣٢ وانظر البحر المحيط ٢ / ١٣ والكشاف ١/٢٥٣ والجلالين .

ذلك تخفيف من ربكم ورحمة . لأنّ أهل التوارة كان لهم القتل ولم يكن لهم غير ذلك . وأهل الإنجيل كان لهم العفو ولم يكن لهم قَوَد ولا ديه . فجعل الله تعالى ذلك تخفيفاً لهذه الأمة . فمن شاء قتل . ومن شاء أخذ الديه ، ومن شاء عفا[1] .

فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم . قتل بعد قبول الدية[2] قال الحسن : كان الرجل فى الجاهلية إذا قتل قتيلاً فرّ إلى قومه فيجيء قومه فيصالحون بالدّية ، فيقول وليّ المقتول : إنيّ أقبل الدّية حتى يأمن القاتل ويخرج ، فيقتله ويرمى إليهم بالدّية[3] وظاهر هذا العذاب أنّه فى الآخرة ، لأن معظم ما ورد من هذه التوعّدات إنّما هي فى الآخرة . وقيل العذاب الأليم فى الدّنيا وهو قتله قصاصاً . قاله عكرمة وابن جبير والضحّاك[4] وعن قتادة : العذاب الأليم أن يقتل لا محالة ولا يقبل منه دية لقوله عليه السّلام : لا أُعْفَى[5] مَنْ قَتَلَ بعد أخذ الدّية[6] .

وإذا كانت هذه الآية الكريمة قد بيّنت مشروعية القصاص ، فإنّ الآية الكريمة التّالية قد بينت حِكمة القصاص . قال تعالى : « ولكم فى القصاص حياةٌ يا أولى الألباب لعلكم تتقون » يالها من حكمة عجيبة يقدر المرء جمالها وجلالها على حقيقتهما حينما يقارن بين بيئتين ، أيّ بيئتين ، تطبق أحداهما حكم الله تعالى وتطبق أخراهما حكم الجاهلية . إنّه بقدر الأمن الذى يسود أولى البيئتين والطمأنينة ، يسود الخوف ثانية البيئتين والاضطراب . فما أجلها من حياة وأجملها تلك التي ينعم بها الفرد والجماعة على

---

(١) تفسير القرطبي ص ٦٣٢ وانظر تفسير ابن كثير ١/٢١٠ والكشاف ١/٢٥٣ والبحر المحيط ٢/١٢ و ١٤ .
وقد جاء فى تفسير الجلالين عبارة يبدو أنها مخالفة فى أحد جوانبها لما أجمع عليه المفسرون .
يقول : « ولم يحتّم واحداً منها كما حتّم على اليهود القصاص وعلى النّصارى الدّية » لعلّ الصحيح . وعلى النّصارى العفو .

(٢) انظر تفسير القرطبي ص ٦٣٢ وتفسير ابن كثير ١ / ٢١٠ .

(٣) تفسير القرطبي ص ٦٣٢ وانظر الكشاف ١ / ٢٥٣ .

(٤) البحر المحيط ٢ / ١٥ وانظر تفسير القرطبي ص ٦٣٣ .

(٥) من عفا الشيء إذا كثر وزاد وهذا دعاء عليه . أى لاكثر ماله ولا استغنى .

(٦) انظر الكشاف ١ / ٢٤٣ وتفسير القرطبي ص ٦٣٣ .

السواء فى المجتمع الذى يحكم بما أنزل الله ، لأنّ من سوّلت له نفسه الأمّارة بالسّوء بأن يقتل أخاه ، يبرز له المصير ذاته الذى سينتهى هو نفسه إليه قصاصاً فيكفّ عن قتل أخيه فتحيا كلتا النفسين ، بل تحيا نفوس كثيرة ، لأنّ قتل الفرد قد يجّر إلى قتل جماعة أخذا بالثأر ، وجرياً مع أهواء النّفس الأمّارة بالسوء ، واتّباعاً لخطوات الشيطان الرجيم .

إنَّ أولى الألباب الصحيحة والعقول الراجحة يطبّقون حدود الله تعالى ، وفيها القصاص . وهؤلاء هم الذين تخصّهم الآية الكريمة بتوجيه الخطاب إليهم « يا أولى الألباب لعلكم تتقون » والمراد هنا تتّقون القتل فتسلمون من القصاص . ثم يكون ذلك داعية لأنواع التقوى فى غير ذلك . فإن الله يثيب بالطاعة على الطاعة »[1] .

---

(١) تفسير القرطبي ص ٦٣٤ .

﴿١٨٠﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ

هذه هي آية الوصيّة . وليس فى القرآن ذكر الوصية إلا في هذه الآية وفى النساء(١): « من بعد وصية » وفى المائدة(٢) « حين الوصية » ، والتي فيى المائدة أتمّها وأكملها . ونزلت قبل نزول الفرائض والمواريث(٣) وعليه فالآية الكريمة منسوخة(٤) قال ابن عباس والحسن وقتادة : الآية عامّة وتقرّر الحكم بها برهة من الدهر ، ونسخ منها كلّ من كان يرث بآية الفرائض(٥) وقد قيل : إنّ آية الفرائض لم تستقلّ بنسخها بل بضميمة أخرى وهو قوله عليه السلام : إنّ الله قد أعطى لكل ذى حقّ حقّه فلا وصيّة لوارث . رواه أبو أمامة أخرجه التّرمذى وقال : هذا حديث حسن صحيح . فنسخ الآية إنّما كان بالسّنّة الثابتة لا بالإرث على الصّحيح من أقوال ال علماء(٦) .

وواضح مناسبة الآية الكريمة اللآيتين الكريمتين اللّتين تتحدثان عن القصاص فإن من سيقتصّ منه مثلاً فى حكم من حضرته أسباب الموت .

وفى الكلام تقدير واو العطف ، أى وكتب عليكم . فلمّا طال الكلام أسقطت الواو(٧) وقد تبيّنّا نوع العلاقة بالآيتين الكريمتين السابقتين . « فالآية مرتبطة بما قبلها ومتّصلةٌ بها فلذلك سقطت واو العطف »(٨) فالله سبحانه وتعالى قد كتب علينا ، قبل نزول آيات المواريث ، أنَّ من حضرته أسباب الموت ومقدّماته ، إنْ ترك مالاً(٩) عليه

---

(١) الآية : ١١ ، ١٢ .
(٢) الآية : ١٠٦ .
(٣) تفسير القرطبي ص ٦٣٥ .
(٤) انظر هنا تفسير القرطبي ص ٦٣٩ ، ٦٤٠ .
(٥) من سورة النساء الآيات ٧ ، ١١ ، ١٢ ، ١٧٦ وانظر تفسير ابن كثير ١ / ٢١١ .
(٦) تفسير القرطبي ص ٦٤٠ وانظر تفسير ابن كثير ١ / ٢١١ .
(٧) تفسير القرطبي ص ٦٣٥ .
(٨) تفسير القرطبي ص ٦٣٥ .
(٩) تفسير القرطبي ص ٦٣٧ والجلالين والكشاف ١ / ٢٥٤ والبحر المحيط ٢ / ١٧ وتفسير ابن كثير ١ / ٢١٢ .

الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف ، بمعنى أنّه لا يتجاوز الثّلث وقد قال عليه السّلام : الثّلث والثّلث كثير[1] ولا يفضّل الغنيّ[2] .

وقوله تعالى : حقاً . يعنى ثابتاً ثبوت نظرٍ وتحصين لا ثبوت فرض ووجوب . بدليل قوله : على المتقين . وهذا يدلّ على كونه ندياً . لأنّه لو كان فرضاً لكان على جميع المسلمين[3] وانتصب حقاً على المصدر المؤكّد[4] لمضمون الجملة[5] أى حَقَّ ذلك حقاً[6] .

يقول ابن كثير[7] : « فأمّا من يقول إنّها ( الوصية ) كانت واجبة وهو الظّاهر من سياق الآية فيتعين ان تكون منسوخة بآية الميراث كما قاله أكثر المفسّرين والمعتبرين من الفقهاء » .

---

(١) تفسير القرطبي ص ٦٤٤ والكشاف ١ / ٢٥٤ والبحر المحيط ٢ / ٢١ وتفسير ابن كثير ١ / ٢١٢ .
(٢) الجلالين والبحر المحيط ٢ / ٢١ والكشاف ١ / ٢٥٤ .
(٣) تفسير القرطبي ص ٦٤٤ .
(٤) تفسير القرطبي ص ٦٤٤ .
(٥) البحر المحيط ٢ / ٢١ .
(٦) الكشاف ١ / ٢٥٤ وانظر رأى أبي حيّان فى المسألة ٢ / ٢١ .
(٧) تفسير ابن كثير ١ / ٢١١ .

﴿١٨١﴾ فَمَنْ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ

تبيّن الآية إثم العظيم الذى يرتكبه من يبدّل الوصية بالزّيادة أو النّقصان بعد ما سمعها سماع تدبر ووعاها . إنّ الله سبحانه وتعالى سميع لقول الموصى عليم بفعله وبفعل الموصَى . والآية الكريمة تستعمل ضمير المفرد الغائب المذكّر « فمن بدله بعد ما سمعه فإنّما إثْمه على الذين يبدلونه « والضمير فى بدّله يرجع إلى الإيصاء ، لأن الوصيّة فى معنى الإيصاء . وكذلك الضمير فى سمعه ، وهو كقوله : فمن جاءه موعظةٌ من ربه أى وعظ . وقوله : إذا حضر القسمة أى المال بدليل قوله منه[1] والضّمير فى إثمه عائد على التّبديل أي إثم التّبديل عائد على المبدّل لا على الميّت ، فإنّ الموصى خرج بالوصيّة عن اللّوم ، وتوجّهت على الوارث أو الوليّ[2] قال ابن عباس وغيره واحد : وقد وقع أجر الميت على الله ، وتعلّق الإثم بالّذين بدلوا ذلك[3] .

(١) تفسير القرطبي ص ٦٤٥ .
(٢) تفسير القرطبي ص ٦٤٥ .
(٣) تفسير ابن كثير ١ / ٢١٢ .

﴿١٨٢﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ

حديث الآية الكريمة السابقة عن الوصية حينما تكون على وجهها الشرعي .

وحديث هذه الآية الكريمة عن الوصية حينما لا تكون كذلك . فمن خاف من موص جَنَفاً ، أى خطأ ، قاله ابن عباس وأبو العالية ومجاهد والضّحّاك والربيع بن أنس والسّدّى(١) وأصل الجَنَف الميل(٢) فإن كان الميل عن الحق خطأً غير مقصود فهو الجَنَف ، وإنْ كان الميل عن الحق عمداً فهو الإثم(٣) بأن تعمّد ذلك بالزيادة على الثّلث ، أو تخصيص غنيّ مثلاً(٤) فمن خاف من موصٍ حنفاً أو إثما فأصلح بينهم فلا إثم عليه ، والمراد الإصلاح بين الموصى وبين ورثته وبين الورثة فى ذاتهم(٥) فلا إثم عليه حينئذ ، لأنّ تبديله تبديل باطل إلى حق(٦) .

وتجاه تكرار لفظ الإثم فى الآية مرتين ، يجىء النص على مغفرة الله تعالى ورحمته فى هيئة تذليل . « إنّ الله غفور رحيم » إنّ الله غفور عن الموصى إذا عملت فيه الموعظة ورجع عما أراد من الأذِيّة(٧) رحيم به إذْ تداركته رحمته جل وعلا الّتي وسعت كل شيء . وبالّذين كاد يناهم جنف الموصى وإثمة لولا رحمته جلّ وعلا ولطفه .

---

(١) تفسير ابن كثير ١ / ٢١٢ . (٢) تفسير القرذبي ص ٦٤٦ .
(٣) انظر تفسير القرطبي ص ٦٤٧ والجلالين والكشاف ١ / ٢٥٤ والبحر المحيط ٢ / ٢٣ .
(٤) الجلالين .
(٥) انظر تفسير القرطبي ص ٦٤٦ والبحر المحيط ٢ / ٢٣ ، ٢٤ .
(٦) الكشاف ١ / ٢٥٤ . (٧) تفسير القرطبي ص ٦٤٧ .

# صوم رمضان

الآيات : ١٨٣ - ١٨٨

﴿١٨٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ

تحدّثت آية البر أو الإيمان ، من أركان الإسلام الخمسة ، عن الإيمان بالله ، ومعروف أن شهادة ألاّ إله إلا الله أحد شقى الرّكن الأوّل ، أمّا الشّقّ الثّاني فهو شهادة أنّ محمداً رسول الله ، وقد أكرمه ربه جل وعلا بأن جعله خاتم النبيين وأشرفهم ، وأنزل عليه أشرف الكتب السماوية ألا وهو القرآن الكريم ، كما أوحى إليه السنّة المطهرة ، وعن إقام الصلاة وإيتاء الزكاة ، وقد جاء فى الحديث الصحيح : « بني الإسلام على خمس . شهادة ألاّ إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان والحج . رواه ابن عمرٌ »[1] وها هي ذى الآيات الكريمات تتحدث عن صوم رمضان ، الركن الرابع من أركان الإسلام ، وعن قريب ستتحدث الآيات الكريمات عن الحج إلى بيت الله الحرام ، الركن الخامس من أركان الإسلام . وهكذا يتبين حديث الآيات الكريمات عن أركان الإسلام الخمسة وفق نسق بعينه ، وهذا نوع من الرّباط بين الآيات الكريمات .

ثمّ إنّ الآية الكريمة الأولى عن الصوم تبدأ بالقول : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام » وهي تتفق مع مطلع الحديث عن القصاص «يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى » « ومع مطلع الحديث عن الوصية » كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت أن ترك خيراً الوصية » . وبتدبر الأمور الثلاثة وفق ترتيبها فى السورة الكريمة يتبين أن أشقّ الأمور الثلاثة القصاص فواجب القاتل أن يُسْلِم نفسه كي يُقْتَصّ منه . ويليه فى المشقة كتابة الوصية ، لأنها ذات شقين جسدى ومالي . أما الجسدى فيمكن أن يرتبط بالموت الذى سيحلّ بالموصى إمّا عن طريق القصاص وإمّا حتف أنفه . وأما الماليّ فلأنّ الوصية مرتبطة بالمال وهو عديل الروح ، ويتأخر عن الأمرين السابقين فى المشقة الأمر الثالث وهو الصّيام الذى فرضه الله تعالى علينا كما فرضه على الأمم السابقة وأنبيائهم ابتداءاً بآدم عليه السلام . وإنّ فى التّشبيه : « كما كتب على الّذين من قبلكم » ما يتمشّى مع كون الصّيام أخفّ الأمور

(١) تفسير القرطبي ص ٦٤٩ .

الثلاثة مشقة ، وتفسير ذلك أن رحمة الله تعالى التي وسعت كل شيء شملت الصائمين فأعلمتهم أن الصّيام الذى يقومون به قد كتبه الله تعالى على الذين من قبلهم ، وفى ذلك نوع من تخفيف المشقة بخلاف ما لو كان الصيام قد كتب للمرة الأولى على الأمة الإسلامية . « قال معاذ بن جبل وعطاء : التشبيه واقع على الصّوم لا على الصّبغة ولا على العِدّة ، وإن اختلف الصيامان بالزّيادة والنقصان »[1] ومعنى الصوم فى اللغة الإمساك وترك التّنقل من حالٍ إلى حال[2] وفى الشّرع الإمساك عن المفطرات مع اقتران النّيّة به من طلوع الفجر إلى غروب الشمس . وتمامه وكماله باجتناب المحظورات ، وعدم الوقوع فى المحرّمات ، لقوله عليه السلام : من لم يدع عمل الزّور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه من أجله[3] وثبت فى الحديث عن النّبيّ ﷺ أنّه قال مخبراً عن ربه : يقول الله تبارك وتعالى : كلّ عمل ابن آدم له إلاّ الصوم فإنّه لي وأنا أجزى به . الحديث . وإنّما خصّ الصّومّ بأنّه له وإن كانت العبادات كلُّها له لأمرين بأَينَ الصوم بهما سائر العبادات . أحدهما أنّ الصّوم يمنع من ملاذّ النّفس وشهواتها ما لا يمنع منه سائر العبادات . الثّانى أنّ الصّوم سرّ بين العبد وبين ربه لا يظهر إلاّ له ، فلذلك صار مختصًّا به ، وما سواه من العبادات ظاهرٌ وبّما فعله تصنُّعاً ورياءاً ، فلهذا صار أخصّ بالصوم من غيره[4] .

وقد نصّت الآية الكريمة على الحكمة من الصّوم وهي تقوى الله تعالى : « لعّلكم تتّقون » واللّطيف فى الأمر أنّ أُولى آيات الصيام إذا كانت قد نصّت على هذه الحكمة من الصوم ، فإنّ آخر آيات الصيام قد نصّت على هذه الحكمة كذلك . قال تعالى[5] : « ذٰلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون » ومعروف أنّ تقوى الله تعالى قاسم مشترك بين كل عباد الله تعالى . قال عزّ من قائل[6] : « يا أيّها النّاس اتقوا ربكم ... » وقال تعالى[7]: «ولقد وصّينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإيّاكم أن اتقوا الله». وقال تعالى[8]

---

(١) تفسير القرطبي ص ٦٥٢ .
(٢) تفسير القرطبي ص ٦٤٩ .
(٣) تفسير القرطبي ص ٦٥٠ .
(٤) تفسير القرطبي ص ٦٥٠ .
(٥) الآيـة : ١٨٧ .
(٦) سـورة النساء : ١ .
(٧) سـورة النساء : ١٣١ .
(٨) سـورة الأحزاب : ١ .

« يا أيّها النبي اتّق الله » . وانظر إلى ما يقول أبو حيان بشأن الحكمة من بناء كتب للمجهول فى حقّ المشقّات الثّلاث : القصاص والوصيّة والصيام . يقول رحمه الله تعالى[1] : « وبناء كتب للمفعول فى هذه المكتوبات الثلاثة وحذف الفاعل للعلم به . إذ هو الله تعالى . لأنّها مشاقّ صعبة على المكلّف . فناسب ألاّ تُنْسَب إلى الله تعالى ، وإن كان الله تعالى هو الذى كتبها . وحين يكون المكتوب للمكلّف فيه راحة واستبشار يُبْنَى الفعل للفاعل كما قال تعالى : « كتب ربكم على نفسه الرحمة » . « كتب الله لأغلبن أنا ورسلي » . « أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان » . وهذا من لطيف علم البيان » .

---

(١) البحر المحيط ٢ / ٢٨ .

﴿١٨٤﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ ۚ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ

من مظاهر رحمة الله تعالى بعباده أن جعل الصيام أياماً معدودات ، وليس أشهراً . ثم إنّ المرء إنّما يصوم من الفجر إلى اللّيل وليس اليوم كاملاً ليلاً ونهاراً . وانتصاب أياماً بالصيام كقولك : نويت الخروج يوم الجمعة[١] وقد نزل صوم شهر رمضان قبل بدر بشهر وأيام[٢] وهو العام الذى فرض فيه الجهاد فى سبيل الله . فثمة رباط زماني بين هذين العملين العظيمين اللذين يتطلبان جهداً . وقد رخّص الله تعالى للمريض وللمسافر أن يفطرا ويقضيا . وللمريض حالتان : أحداهما ألاّ يطيق الصّوم بحال فعلية الفطر واجباً . الثّانية أن يقدر على الصّوم بضررٍ ومشقّة ، فهذا يستحبّ له الفطر . ولا يصوم إلاّ جاهل[٣] وقال جمهورٌ من العلماء : إذا كان به مرض يؤلمه ويؤذيه ، أو يخاف تماديه أو يخاف تزيّده صحّ له الفطر[٤] .

أو على سفر ، اختلف العلماء فى السّفر الذى يجوز فيه الفطر والقصر ، بعد إجماعهم على سفر الطّاعة كالحجّ والجهاد . ويتّصل بهذين صلة الرحم وطلب المعاش الضروري[٥] ومسافة الفطر عند مالك حيث تقصر الصلاة . واختلف العلماء فى قدر ذلك[٦] وعدل عن اسم الفاعل وهو : أو مسافر إلى أو على سفر ، أشعاراً بالاستيلاء على السفر لما فيه من الاختيار للمسافر ، بخلاف المرض فإنه يأخذ الإنسان من غير اختيار فهو قهريّ[٧] .

---

(١) الكشاف : ١ / ٢٥٥ .
(٢) البحر المحيط : ٢ / ٣٠ .
(٣) تفسير القرطبي ص ٦٥٢ .
(٤) تفسير القرطبي ص ٦٥٣ وانظر البحر المحيط ٢ / ٣٢ .
(٥) تفسير القرطبي ص ٦٥٣ .
(٦) تفسير القرطبي ص ٦٥٣ .
(٧) البحر المحيط ٢ / ٣٢ .